أيقونة الوطن في الشعر الجزائري الحديث
ديوان أطلس المعجزات لصالح خرفي نموذجا

د. عبد اللطيف حني.

قسم اللغة العربية وآدابها؛ كلية الآداب واللغات؛ جامعة الطارف؛ الجزائر.
البريد الإلكتروني : *henni2006@gmail.com*

تاريخ الإرسال: 01/ 11/ 2017؛ تاريخ القبول: 15/ 12/ 2018.

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى الوقوف على أيقونة الوطن في الشعر الجزائري الحديث باعتباره من الموضوعات الكبرى التي اهتم بها الشعراء الجزائريون للتعبير عن حبهم وعشقهم لوطنهم الجزائر، متخذين ديوان أطلس المعجزات للشاعر صالح الخرفي نموذجا، حيث تجسدت مظاهر البعد الوطني في ثلاثة موضوعات كبرى؛ التغني بالجزائر والإشادة وبرموزها، والتغني بالراية "العلم الجزائري" والشوق والحنين، حيث عكست القيمة الوجدانية للجزائر في نفس شاعرنا في أبعاد متعددة منها وطنا وأما وحبيبة ورفيقة.

الكلمات المفتاحية: أيقونة الوطن؛ الشعر الجزائري؛ الحديث؛ أطلس المعجزات، صالح خرفي.

Summary:

This article seeks to identify the icon of the country in modern Algerian poetry as one of the major subjects on which Algerian poets are interested in expressing their love and love for their homeland. Singing and praising Algeria, singing the banner "Algerian flag," longing and nostalgia.

Keywords: Home icon; Algerian poetry; Talk; Atlas of Miracles, Saleh Kharfi.

بسط منهجي:

لعل المتفحص في الشعر الجزائري الحديث المصاحب للثورة التحريرية يلحظ تضخم حب الوطن لدى شعرائه، نتيجة الاغتراب والاضطهاد الممارس عليهم وحرمانهم من التمتع بالحرية والأمان في أوطانهم، ومعاناة شعوبهم من وطأة الاستدمار واستحكام قبضته التي لا ترحم ولا تعترف بالإنسانية وحقوها، فكانت قرائحهم تصدر مناجاة للوطن وقلوبهم تشتاق لمعانقته وأرواحهم تتحرق لحنين تربته، وهذا صادر عن وطنية متأججة في قلوبهم، فكان الشاعر الجزائري لسان شعبه المتألم الجريح، وهذا ما تسعى الدراسة إلى الوقوف عليه من خلال كشف صورة الوطن في قلب المجاهد الشاعر صالح الخرفي الذي لا طالما غازله وأحبه وتمنى الارتماء في أحضانه حرا أبيا، ذلك الوطن الذي نافح عنه بالنفس والنفيس، إنه الجزائر.

مصطلح الوطن بين الدلالة والماهية:

لقد تناول القدماء مادة -وطن - في مصنفاتهم المعجمية تناولا مستفيضا، وممن تناول ذلك ابن منظور في لسان العرب، حيث يقول : «الوطن :المنزل نقيم به، وموطن الإنسان ومحله...وقد ذكر في موضعه، والجمع أوطان الغنم والبقر، مرابطها وأماكنها التي تأوي إليها»(ابن منظور، د.ت، مجلد:13، ص:451)، وتستقر بها، ويكون القصد هنا المكان الذي نحل به سواء كان منزلا أم أرضا حيث يقول: «وَطَنَ بالمكان وأَوْطَنَ أَقام الأَخيرة أَعلى وأَوْطَنَهُ اتخذه وَطَناً يقال أَوْطَنَ فلانٌ أَرض كذا وكذا أَي اتخذها محلاً ومُسْكَناً يقيم فيها»(ابن منظور، د.ت، مجلد:13، ص:451)، ونسمي مواطن لتلك الأرض«كقولك إذا أتيت فوقفت في تلك المواطن فادع الله لي ولإخوانك »(ابن منظور، د.ت، مجلد:13، ص:451).

أما في معجم متن اللغة فكلمة الوطن تعني المكان أيضا فنقول :«وَطَنَ يَطِنُ وَطَنًا بالمكان أقام فيه، اتخذه موطنا، إتطن المكان : أقام به، توطن

المكان: اتخذه وطنا، الوطن : المنزل تقيم فيه، الوطن كذلك، الموطن : المكان الذي تتخذه موطنا ... »(أحمد، ر. 1960، مجلد:5، ص:777 -778).

وقد عرف الجرجاني كلمة الوطن في كتابه التعريفات : «الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه، وطن الإقامة: موضع ينوي أن يستقر فيه خمسة عشر يوما أو أكثر من غير أن يتخذه مسكنا»(الجرجاني، س. 1987، ص:308).

كما جاء في المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عن مادة وَطَنَ: «وطن بالمكان : (يطن) وطناً أقام به، أوطن البلد : اتخذه وطنا، توطّن : أقام فيه»(مجمع، ل. ع. 1990، ص:674) وعلى العموم فإن كلمة وطن هي من وطن يطن وطنا بالمكان أي أقام فيه، ووطن نفسه على كذا مهدها له وحملها عليه، والوطن هو المنزل نقيم فيه (الواو والطاء والنون كلمة صحيحة) تعني محل الإنسان أو فاتخذ من الأرض وطنا(أحمد، ب. ف. د.ت. ج:6، ص:120).

أما مفهوم الوطن اصطلاحا فقد أخذ مفهومه منذ القدم إلى العصر الحديث عدة معان ودلالات مختلفة اصطلاحية منها ما يعني« المنزل الذي يحل به المرء وينزل فيه مع أهله وعشيرته، لأن تجمع العرب قديما في بقعة ما كان على أساس بشري قبلي لا على أساس جغرافي مكاني»(عزيزة، م. 1966، ص:64)، هذا المعنى ساد عند العرب قديما، لأن حياتهم كانت تمتاز بالتنقل، وعدم الثبات في أرض معينة خاصة، منهم البدو لقساوة الطبيعة وبخلها عنهم بالكلأ والماء والمناخ المساعد على الاستقرار، ومن هذه الزاوية نستنتج أن مفهوم الوطن«كان مرتبطا منذ الجاهلية بظروف الحياة المادية، الحياة في مكان ما تستمر، مادام هذا المكان ... يهيئ له حياة هنيئة سعيدة»(وهيب، ط. 1979. 1980، ص:224).

وأصبح المفهوم في العصر الحديث، يعنني المدينة التي يقطن بها الإنسان مع أهله، وتربطه بها عدة عرى وثيقة، منها المولد والنشأة، فتأخذ منه عاطفة الحنين واشتداد الشوق، عندما ينأى عنها، لتواجد أهله فيها، وقد تأخذه الذكريات المملوءة بمشاهد من أيام الطفولة والصبى في ربوع تلك المدينة، ومن ثم فإنه لا

يستطيع مشاركة وطنه أفراحه وأحزانه، وما تأتي به الحياة من ظروف قاسية أليمة، لا يهونها إلا صديق أو أخ عزيز.

ومن المفكرين المعاصرين من يخالف هذه النظرة للوطن على أساس الارتباط المكاني، ويرون(الماديون) أنه المكان الذي يوفر الحياة الكريمة والأمن والسلام، ولو كان غريبا بعيدا عن الفرد ولا تربطه به روابط وهؤلاء يجنحون في ذلك وجهة اقتصادية، تسقط أمامها كل الصلات الاجتماعية والنفسية، وقد سادت هذه النظرة الوطن العربي في عصرنا الحالي بحثا من أبنائه على توفير الحياة المريحة البعيدة عن المعاناة والأتعاب المختلفة، إذ يتسابقون إلى الهجرة لأماكن غير أوطانهم التي ألفوها وشبوا على أرضها وتسامروا في روضها.

والمتفق عليه حاليا أن مصطلح الوطن، هو البقعة الجغرافية الواضحة الحدود، والمعترف بها عالميا، والتي تضم شعبا ولغة وتاريخا مشتركا وعادات وتقاليد معينة، وديانة خاصة في معظم الأحوال، إذ سبب ظهور هذا المفهوم يرجع في الحقيقة لعدة عوامل منها الحربان العالميتان الأولى والثانية، اللتان قلبتا موازين العالم رأسا على عقب، وكثافة موجة الاستعمار الذي أصل مفهوم الوطن لدى الشعوب المظلومة، فتولدت عن ذلك مصطلحات عدة منها: المطالب الوطنية، الحقوق الوطنية، الدولة الجزائرية، الوطن الجزائري ... إلخ من الوطنيات المحدد بهذا المقياس.

وقد أدى ظهور القوميات والتيارات المتعددة الاتجاهات إلى اتساع مدلول الوطن أكثر إذ أصبح شاملا لمجموعة من الدول والشعوب التي تشترك في معتقد واحد وفي انتماء عرقي واحد أو سمة حضارية واحدة، ويكون«المعنى أشمل إذا قصد بالوطن، وطن قومية من القوميات كالوطن العربي مثلا، ويكون أكثر شمولية إذا نظرنا من الوجهة الإسلامية حيث وطن المؤمن...هو العالم أجمع والأصل عنده الإسلام»(محمد، ز. 1989، ص:52).

الشعر الوطني:

ويذهب الكثير من الدارسين والباحثين إلى أن الشعر الوطني «هو الذي يدور حول قضايا الوطن ومشكلاته السياسية والاجتماعية، والذي يصور حب

الإنسان لوطنه ولأبنائه إنه تعبير عن مواقف وآراء قامت في ضمير أبناء الوطن، فوعاها الشعراء وأدركوا أبعادها، وتأثروا بها فغدت لديهم تجربة شعورية حادة، فعبروا عنها تعبيرا صادقا، وأسبغوا عليها من عواطفهم فغدت قادرة للتأثير في نفوس مواطنيهم»(إميل، ن. 1992، ص:9)، وهو الشعر الذي ارتبط بالوطن منافحة ودفاعا وتمكينا وتغنيا وتمجيدا إنه «صورة لوجدان المواطنين وتعبيرا عن أمانيهم وأحلامهم وتجسيدها نفسية الشاعر»(إميل، ن. 1992، ص:9).

فالشعر الوطني بعد أن كان أبياتا في قصائد فإذا به يصبح في العصر الحديث قصائد قائمة بذاتها، بل فن أبحر فيه الشعراء وعاشوه بكل حواسهم ولعل أروع مثال في الشعر الوطني الظاهرة التي سادت الشعر المهجري في العصر الحديث، وكذلك الشعراء الوطنيين ومن أشهرهم : أبو القاسم الشابي، القروي، أحمد شوقي، في أخريات حياته، شعراء الأرض المحتلة (إبراهيم طوقان، أحمد درويش، سميح القاسم).

تجليات الشعر الوطني في ديوان أطلس المعجزات:

إن الثورة التحريرية منطلق الشعر الجزائري الحديث، فقد أججت عواطفهم فراحوا يسكبون حبر أقلامهم على الأوراق، ليدونوا أحداثها ويصفوا عظمتها ويشيدوا بطولة الشعب الجزائري الذي ضحى بأغلى ما يملك، فكان هذا الإبداع الشعري وطنيا حيث جندوا له طاقاتهم التعبيرية لتسجيل أية حادثة أو مناسبة تمر في قصيدة خاصة أو ضمن ثناياها بغض النظر عن المناسبة سواء أكانت دينية أم قومية، فقد كان همهم الوحيد مواساة الوطن المكلوم بالجراح، والدفاع عن مقوماته، والحفاظ على سماته وأصالته أمام تيارات التغريب.

ولقد عكف شاعرنا صالح الخرفي على إبداع شعر وطني يعالج مآسي الشعب، ويتجلى ذلك في ديوانه أطلس المعجزات الذي هو محل دراستنا، حيث نلاحظ شيئا مهما ألا وهو الاحتقان الثوري الوطني الموزع على الديوان «الذي شهدته الجزائر فجر بطولة ساخرة لا مبالية فاقدة الإحساس بالآلام الجسدية»(صالح، خ. 1984، ص:233).

فهذا الاحتقان الثوري جعل شعر صالح الخرفي ملتصقا بالثورة الجزائرية «في سهولها وجبالها ومغاورها وكهوفها، فالثورة فيه خافقة تائقة زاحفة متموجة حيث اختلط الشعر بالدم ورائحة البارود، إذ لا يكتفي الشاعر بالتحويم العائم على الجبال، أو بالصورة القائمة تلتقط من الجو وغنما يتتبعها بأسمائها، ويلون الخارطة بالألوان البارزة ويستوحي الأبعاد البطولية»(صالح، خ. 1984، ص:233)، ومن هذه الأسماء أوراس، البيضاء، تبسة، القصبة، شوارع الجزائر العاصمة، فهذه «الأماكن من قرى ومدن وجبال في الشعر العربي تبث العواطف المرتبطة بحب الوطن، فتهيج في المغترب الأشواق والحنين، وتذكو شعلة الغربة والحنين الدائم لأرض لا تنمحي معالمها الجغرافية ولا تزول»(سلمى، خ. ج. 1989، ص:214).

ولعل أهم ما جعل الشعر يعيش مأساة الجزائر بذاته وروحه هي حياة الغربة التي كان يعاني منها، فهذه الغرب صقلت تجربته الشعرية، خاصة عندما تمتزج مع تلك الأخبار المزعجة التي تصل إلى الشرق العربي عن الثورة التحريرية الكبرى، وعن جرائم الاستعمار وعن وحشيته، وعن الناس الذين يزج بهم في السجون يقتلون غدرا وخطأ، إضافة إلى الروح الوطنية التي تتأجج في صدره منذ صغره هذه الروح التي كانت تكبر معه، وتتبلور كما تبلورت أفكاره، وتشده شدا إلى أرض البطولات إلى مسقط رأسه وذكرياته وصباه إلى تلك الأرض التي عاش فيها أجداده وأبناؤه، تلك الأرض التي عشقها صغيرا واكتوى بنارها كبيرا، أرض الجزائر الثائرة فكان بذلك ديوانه "أطلس المعجزات" بمثابة المنبر الذي يرى منه الناس فيكون خطيبا ناصحا مرشدا تلهمه الثورة بالكلمات وتمده بالأفكار الثائرة ويلون بالدم قصائده فيرسلها من صخور الأطلس الشامخ يشيد بالثائرين الأحرار.

وإذا أرنا تلمس مظاهر البعد الوطني في ديوان شاعرنا صالح الخرفي الذي ضمنه أحاسيسه الوطنية، فغن أول ما يقابلنا هو التغني بالجزائر والإشادة برموزها مما يجعله يتغنى بها وبرايتها يتشوق إليها ممجدا ثورتها ومجاهديها:

أولا -التغني بالجزائر والإشادة برموزها:

عندما نطالع شعر الخريف نجده يهيم بحب الجزائر فهو«غارق في حب وطنه إلى أعمق أعماقه وأخمص قدميه لأنه معذب بهواه هائم فيه ولذا عاش مؤرقا بوطنه متشوقا إليه لا يهدأ من هجمة الحنين إلا ويعاوده هذا الحب مما جعل حب الوطن يتضخم كلما كبرت المأساة وكلما عاوده القلق وتملكه»(صالح، خ. 1982، ص:180)، حيث يقول في قصيدة نوفمبر(صالح، خ. 1982، ص:180):

يا روضة الشهداء من ارض الفدا يا أسد معقلها و لا أسد الشرى
يا روضة الشهداء لولا كعبة هي قبلتي سميتها (أم القرى)
يا صيحة الأحرار من أرض الجزا ثر لم زل تغزو المدائن و القرى
لولا اختتام الوحي بالهادي ولو لا روضة فيها أقام معطرا
أقسمت أن الأطلس الدامي يخبئ للبرية هاديا و مبشرا

فالخريف يتسامى بحب الجزائر حيث يصفها بروضة الشهداء، ومعقل الأبطال الأشاوس، فهو بفيض عليها بأوصاف قدسية مما يجعل وطنيته وطنية عميقة الأغوار، وغايته في ذلك بث الحماس، وإلهاب المفاخر في أرض الجزائر، لان الجزائر ثغر من ثغور العروبة والإسلام، ولولا المقدسات في مكة والمدينة لآمن الشاعر بأن الجزائر مبعث الرسالة، ومهبط الوحي وقبلة الأحرار (صالح، خ. 1982، ص:180):

لولا اختتام الوحي بالهادي ولو لا روضة فيها أقام معطرا
أقسمت أن الأطلس الدامي يخبئ للبرية هاديا و مبشرا

فالخريف يشيد بحبه للجزائر ويجعلها من المقدسات التي يحرم لمسها، ويسمو بها إلى درجة الشرف المتناهي لأنها أرض المعجزات والكرامات الإلهية.

وقد اتخذ من نفسه المتأججة منطلقا لرؤيته الشعرية، فجاء شعره وجدانيا انفعاليا مما أماط اللثام عن رؤيته الحزينة ونفسه المتألمة وقلبه المحطم، فهو يعيش حياة الخوف لأنه يصبو إلى الحرية والعودة إلى وطنه، فالجزائر لا تغيب عن نظره وفكره فهي تملأ عليه حياته(صالح، خ. 1982، ص:222):

أنت أنشودة الصياح إذا افتر وفي غفوة الدجى أنت نجوى
خطوة أنت للكفاح وللثأر تهادت في ساحة الحرب نشوى

فهذا التغني بالجزائر يعود إلى أن الشاعر لا يرى في الجزائر إلا حريته وحرية شعبه، فهو لا يحس بهذه الحرية إلا إذا كان في أرض الجزائر، الجزائر التي تستمد قوتها من الشرق الحالم، شرق الحضارات مما جعلها آية للثائرين، فيقول في قصيدة "صرخة جزائري" (صالح، خ. 1982، ص:101):

سنة الكون أن أكون طليقا
أتخطى في الغرب دربا سحيقا
و من الشرق أستمد شروقا
لبلاد أقسمت أن تفيقا
إنها تربة تسمى الجزائر
أخرجتها للكون قبضة ثائر

ويتسامى متغنيا بالجزائر ومكانتها الأصيلة الضاربة في التاريخ، والتي تعكس حضارتها العربية؛ فالفرد الجزائري يتميز بالكرامة والمروءة والفروسية منذ عهد طويل، حيث يقول(صالح، خ. 1982، ص:12، 13):

وطني عهدتك في المروءة والكرا مة حيث يعشق \كراك الجلاس
وعهدتك فيك العز يشمخ انفه نحو السماك وللعزيز شماس
قصب السباق عهدتك للعتاق خير لك إن تبارت في العلا أفراس
فتغيرت دنياك والأوغاد فيـ ك ترفعت وانحطت الأكباس

فمهما حاول الاستعمار بشتى الطرق طمس معالم الجزائر فلن يستطيع، لأن وراءها رجالا عاهدوا الله على حماية الإسلام وأهله من الضياع في دوامة التغريب، فالخر في يدرك ذلك جيدا فراح يشيد بماضي الجزائر التليد ويتغنى بأمجادها وبطولاتها وبرموزها المحبوب.

ثانيا -التغني بالراية "العلم الجزائري":

فإذا كان الشاعر قد تغنى بالجزائر وقدسيتها، فهو لا يملك إلا أن يعتز برايتها هذه الراية التي استشهد لأجلها الآلاف، راية العز والسيادة باخضرارها واحمرارها، وبنجمتها الخماسية أنها راية دولتنا التي يجب أن نفخر بها، ونمكن لها وندافع عنها لأنها تظلل المجاهدين في الجبال والوهاد، فهي ترفرف دوما، إنها

راية الأمجاد والأجداد وراية الأحرار، فالخريف يشيد بالعلم الجزائري ويؤمن به كرمز للجزائر وحريتها، ويضع الثقة في الثورة منذ انتصاراتها الأولى.

لعل شاعرنا يصف العلم الجزائري في قصيدة " عهد جديد" التي نظمها بمناسبة إعلان الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في سنة 1958، والتي يشيد فيها بهذه الراية التي ظلت خفاقة سبعة عشر عاما في عهد الأمير عبد القادر الجزائري الذي قارع الاستعمار الفرنسي، وهز كيانه فهذه –فهذه القصيدة - من أهم قصائده، أجل إن صالح الخريف يكثر من الإشادة بالوطن، والتغني بالراية إلى حد أنه يرى أن كل جزائري لا تظلله إلا هذه الراية المقدسة التي يجب أن نفتخر بها وندافع عنها ونمكن لها، إنها راية الحرية والنصر، راية الدولة الجزائرية التي انبعثت من جديد(صالح، خ. 1982، ص:109. 110):

يا أخي ظللتك أقدس راية
وبها سرت نحو أشرف غاية
إنها دولة، وليست حماية
إنها النصر والعلا في النهاية
إنها يا أخي برغم الجبابر
دولة من صميم شعب الجزائر

فالعلم بتاريخه الطويل ذو مكانة في نفوس الشعب، فهو صورة الوطن المصغرة، وجدير «بأن يحظى من الشعر بوقفات تقديس وإجلال ولفتات وافتتان وهيام فتخفق في خفقاتها أوزانه وقوافيه، ولم يقل الشعر عن السلاح وفاء للعلم الجزائري فطالما حياه بطرف مطرق وقلب خاشع»(صالح، خ. 1982، ص:284) دليل على مكانته لذا وصف العلم بريشته الشعرية وبالألوان التي «يستمدها من الطبيعة الجزائرية، وأخلاق أبناء الجزائر ومواقفهم البطولية، ودفقة من دمائهم وقطعة من وطنهم الأخضر ونسيج من عروقهم النابضة، فهو بذلك أهل لأن يفدى بالغالي والنفيس، فهو رمز الجزائر الحرة»(صالح، خ. ش. ج، ص:285)، حيث يقول الشاعر (صالح، خ. ديوان، ص:110):

ظللتنا بنجمة وهلال

وسلام على ممر الليالي
واخضرار على الربى والتلال
ودم مفرد القداسة غال

إن الاعتزاز بالراية الجزائرية يشتد عند الخريف، فيروح يسخر من الراية الفرنسية التي لا يراها ترفرف في مدن ومداشر وطنه، فقد داسها المجاهدون وأنزلوها ورفعوا مكانها العلم الجزائري الممثل للدولة الحرة المستقلة، بفضل عزم الشعب وتضحيات شهدائه، حيث يقول(صالح، خ. ديوان، ص:110):

أين (بلو بلون والروج) ؟
أين الجبابر ؟
إنهم تحت أرجل وحوافر

هكذا يسخر شاعرنا من علم فرنسا ويمجد الراية الجزائرية، التي التقفتها السواعد وسكن أفئدة الشعب، وهذا العلم المفدى الذي لا يزال صاعدا إلى العلا، ولا يزال أبناء الشعب يبايعونه الواحد تلو الآخر فهو علم الثوار، وأنات الجزائر وصرخات اليتامى(صالح، خ. ديوان، ص:110، 111):

علم ثائر إلى المجد صاعد
فتلقفته أعين وسواعد
أقرباء على السوا وأباعد
بايعوه بكف حر مساعد
تلك أنت يتم و حرائر
فجرت بالحنان أقسى الضمائر

وبذلك يكون العلم رمزا عظيما يتباهى به الشاعر ويتغنى بألوانه ويشيد بحامليه، بعد أن أشاد بالوطن وتغنى به ومجده، يهزه الألم ويتضوع الحب إلى أولئك الرجال الذين يعيشون في أتون اللهب المقدس، فلا يملك نفسه إلا وهو يستعرض تلك الصور البشعة التي ارتكبها المستعمر في أرض الجزائر حيث يراها مشاهد أمام عينيه.

ثالثا -الشوق والحنين:

إن الحياة التي عاشها الخريف خارج وطنه كان لها أثر كبير في نفسه، وقد انطبع ذلك في شعره، فتأخذه صورة الجزائر الجميلة بسهولها وجبالها فيهيم شوقا وحنينا للارتماء في أحضان طبيعتها الهادئة، فيخاطبها في صورة الأم الحنون التي تترقب عودة ابنها من سفر قد طال فهي لا تعلم عنه شيئا وهي تنتظره بفارغ الصبر، فدموعها الغالية تسقط عليه، فيواسيها الخريف بنفحاته القلبية المتوالية ويقبلها على جبينها الطاهر وعدها بالعودة القريبة كما يصورها في صورة الحبيبة فيتشوق إليها ويأمل ملاقاتها.

فالخريف شاعر وطني يعتلج شوقا وألما إلى الوطن الذي يحترق بالآلام ونيران الأعداء، ولكم تهزه تلك المناسبات الغالية حين يجد نفسه غريبا، بعيدا عن وطنه المحترق بلا أم تواسيه، ولا بيت يأويه، ولا أخ يمسح همومه، هذه الأم التي تركها الشاعر في أرض الجزائر ولا يدري ما حل بها، وكيف نكل بها المستعمر فهو شغوف إلى رؤيتها يتطلع إلى كل خبر عنها، هذه الأم التي حرم من مناداتها والجلوس إليها، فيرسل هذه الزفرات الحارة حين يرى الأمهات مع أبنائهن فيذكره المشهد، فيقول(صالح، خ. ديوان، ص:97):

كم ذكرتني أمهات في ثياب زاهية
أيامك السوداء بين الذئاب الضارية
والعيد خضب منك كفا بالدماء القانية
وتقلد الخدان لؤلؤ مقلة لك باكية
والكف ساند خافقا دقاته متتالية

كما يظهر شاعرنا مدى قلق وحيرة والدته عليه فيقول(صالح، خ. ديوان، ص:97):

تتساءلين عن ابنك المنفي عن آلامه

إن اللوحة التي يرسمها الشاعر لامه هي لوحة مأساوية لما حل به في العيد، ولما يتصوره في أرض الجزائر من ويلات وآلام، فهو يرى أمه وهي دافنة رأسها بين كفيها والدمع يترقرق من مقلتيها في أرض أجداده غريبة عنه لا يستطيع

مواساتها، ولا تستطيع هي أن تواسيه أو تخفف عنه آلامه ومتاعبه(صالح، خ. ديوان، ص:95):

أمي يهنئ كل نجل أم ويعانق
وأنا نصيبي منك يا أمي الخير الطارق
أحيا هنا وانا لمرآك الوضيئ مفارق
لكنني بالرغم منه باللقاء أنا واثق
أماه هذا المعتدي هذا الغراب الناعق
أنا والجميع وأنت يا أمي عليه صواعق

فالشاعر يبحث عن أمه بين الوجوه فلا يجدها فيقلب خيالها ليراها لكنه لا يسعده ذلك فهو يود ملامستها ولقاءها لكن حال بينهما المستعمر الذي بدد خياله وفرق أهله، لذا يرجع الشاعر أسباب غربته له وعذابه الداخلي، وحيرته الممزوجة بالوحدة والآلام بعيد عن أمه التي هي قريبة من قلبه، حيث كرر كلمة أمي ليدل على مدى شوقه العميق(أمي، أنت، أماه، أمه) وإيحاء على شدة حنينه، ولكن لا يملك إلا أن يقدم الشكر للقاهرة هذه المدينة التي تحتل في قلب الشاعر مكانة، فقد قدمت له يد المساعدة، وفتحت له أحضانها كأم ثانية فهو يعرب عن غربته وعن أهله وبلده فلم يجد التعويض منهم مثل أمه، التي تتميز بحنينها وضمة صدرها ولمسة يدها الحانية التي تجول بإحساس الشاعر (صالح، خ. ديوان، ص:95):

أمي اسأليني عن حياتي في ربوع القاهرة
عن آهاتي وتململي عن مقلة لي ساهرة
لا أكذب التاريخ يا أمي فنفسي شاكرة
للنيل شاكرة أيادي لا تقدر زاخرة
لكن يا أماه والأيام تخطو عاثرة
أيام غربة شاعر آماله متناثره
لم احظ في الدنيا بمن يضفي علي مشاعره
ينسى فؤادي بسمة لك في المواسم ساحره

ISSN: 2477-9865
EISSN: 2602-5167
N.D.L: 2015-6187
DOI:
Vol. 4 N°: Spécial. Décembre 2018

ويشتد الشوق بالخريف إلى أن يتذكر كيف كان يمضي العيد مع أمه، وتمر صورتها أمام عينيه وهي تحضر لذلك اليوم، وذلك بالنهوض باكرا في يوم العيد وتزيين البيت للزائرين، فيترك هذا المشهد في نفسه من مشاهد أمه حزنا وأسى على مفارقتها فيقول(صالح، خ. ديوان، ص:96):

من يا ترى ينسى فؤادي يقظة لك باكره
في فجر يوم العيد والأعياد ذكرى عابره
لتزييني البيت الجميل لزائر أو زائره
والبشر يرسم في محياك الجميل بشائره

فهذه الأشواق التي تهز الشاعر والحنين الذي يسكن نفسه إلى أمه في الوقت ذاته شوق إلى الوطن ولهفة إلى أركانه لأن الخريف رقيق الإحساس، دقيق الشعور مختلج الجوانح معتلج العواطف، مما زاده ألما حين يحس بيقظة الأسى إلى وطنه وأمه، لذا نراه يلح على أمه بأن تسأله عن حياته وآهاته، فهذه التساؤلات الرقيقة العذبة لدليل على صدق الشاعر وانزياحه إلى عالم الأشواق ومحراب الآلام، مما يجعله يطرق باب الأفكار ويهيم بها في الخيال بسحر وحنان مسهب.

ويحدق الشاعر بنظراته إلى الأمهات الأخريات فترسم صورة والدته أمامه دائما، فيشتاق إليها ويفكر فيها وفي حالتها بين الذئاب الضارية، فيحز في نفسه فيقول (صالح، خ. ديوان، ص:96):

لكن يا أماه أنت الأم الحانيه
كم ذكرتني أمهات في ثياب زاهية
أيامك السوداء ما بين الذئاب الضاريه
والعيد خضب منك كفا بالدماء القانيه
وتقلد الخدان لؤلؤ مقلة لك باكيه
والكف ساند خافقا دقاتك المتتاليه
تتساءلين عن ابنك المنفي عن آلاميه

ويسرد الخريف المشهد عن أمه وكأنها مجسدة أمامه فيبدع في ذلك قائلا(صالح، خ. ديوان، ص:97):

أمي إليك مني حكاية تجسد دائيه
كان الصديق صباح يوم عيد الأم يعرف ما بيه
والخل ابن النيل مصري يفيض حساسيه
فمشى بجنبي ساعة أقضى الحياة كماهيه
حتى إذا حان الوداع وفي الوداع أنانيه
فسألته عن قصده عن سعده و شقائيه
فأجاب أمي لا أشك بغيبتي في داهيه
قلقت عليه أمه لما تغيب ثانيه
صبرت أنت لغيبة سنواتها متتاليه

فهذه من وطنية الخر في شعوره بالحنين والشوق للجزائر في غربته لأنه«اغتراب لا يعلم له انتهاء مما يجعل الأنفس معلقة بين اليأس والطمع ولكن هذه المشاعر رغم ثبوتها بين الحنايا فقد طوتها الضلوع وهي تتمزق وتتكرت لها وهي تضرب بجذوتها بأعمالها وتسامت عليها وانصرفت عن ذكرها»(محمد، ن. 1981، العدد:89 -90، ص: 123)، فتجنح هذه العاطفة الثورية المفعمة بحنين الوطن لتصبح شعورا يضمه الشاعر في نفسه شوقا وحرقة بملاقاة الأهل والأصحاب، فيكون نكران الذات عنده عبارة عن التضحية بالعواطف الشخصية والتسامي بالمشاعر الذاتية، ونلمح ذلك في قصيدة" نداء الضمير" التي أظهر فيها هذه العاطفة المعبأة بالحنين لتربة الجزائر، ففي هذه القصيدة«جمع بين الحب والثورة... تصور حياة حبيبين نعما بالحب وفرقت بينها الحرب، فهاهي الحبيبة تتلهف على حبيبها وتعرب له عن حبها ووفائها وأملها باللقاء به مع النصر القريب»(الوناس، ش. د. ت. ص:114).

فشعور الخر في بالعودة إلى الوطن والتلاقي مع الحبيبة جعل أفكاره تنثال انثيالا لتتجاوز هذه المحنة قهرا وذلا وطلبا للأمن والراحة، وتعويضا عما يشعر به من نقص، فاستذكار الماضي والحاضر معا هي أمنيات في ذهنه وتوقع بالعودة فهي ترسم اتجاها واضحا إلى من يعرف هذه الأشواق والعاطفة التي تجعل من

الطبيعة مادة لها تأملا وتفكرا، بل تكون هذه الطبيعة مصدرا لأشواقه ومظهرا من مظاهر الحرية(صالح، خ. ديوان، ص:193):

يا حبيبي ذكريات الأمس لن تبرح خيالي
كيف تغفو مقلتي عن ذكراها عبر الليالي
لا تلمني إن ترامت بي أمواج البعاد
لا تلمني لم يزل يخفق للحب فؤادي
غير أن القلب هزته نداءات شجية
صعدتها في دجى الليل قلوب عربية
وجفون مسها الضيم فغصت بالدموع
فاستطارت شعلة الحب لهيبا في ضلوعي
فوهبت الحب قربانا وبايعت الجزائر

فهذه الأمنيات في شعر الخرفي الوطني تكشف لنا عن نفسه المتألمة بنار النوى عن الوطن، وقلبه المحطم لأنه يعيش حياة الخوف والوجل مما يجعله في رغبة ملحة إلى أن يعود لذكرياته، فهذا تشبث بالوطن وساكنيه ودفاع عنه وتضحية في سبيله مما يضخم الحب الوطني والشعور بالغربة فتسيل قصائده في حرارة وحرقة تنم عن رقة إحساسه وحبه لأرض الجزائر التي تمثل صورة صباه وفتوته وصورة أجداده وأصدقائه ليجسدها في صورة الحبيبة(صالح، خ. ديوان، ص:194):

يا حبيبي لم أخن عهدي ولا خنت هوايا
غير أن الحب أمسى ثورة بيت الحنايا
لك حبي في ذرى الأطلس في تلك الروابي
فهناك الأفق الرحب لأحلام الشباب

فهذا البوح العاطفي الوطن الشجي البعيد الأغوار يعمق التجربة الشعرية للشاعر، ويجعل العواطف تنساح انسياحا ولا تقف أمامها الحدود ولا القيود، وهذا يخفف من آلام شاعرنا ويبعث فيه الأمل والرجاء(صالح، خ. ديوان، ص:194 - 195):

يا حبيبي كم فرشنا الربع وردا وزهورا

كم بنينا من هوانا لأمانينا قصورا
لك حبي يوم تعلو بسمت النصر ثرانا
ويذيب الليل والآلام فجر من دمانا
سوف ألقاك مع النصر وأفراح البشائر
سوف نبني عشنا في ظل تحرير الجزائر

فالخر في يبعث أملا بالعودة للوطن والالتقاء بالحبيبة التي اشتاق إليها لكي يفرحا بنصر الجزائر، وبذلك يكون شاعرنا قد ربط المرأة بالأرض إذ هي تمثل «ذلك التواصل الحي بينه وبين الحياة والكون وبذلك تكون المرأة السكن الداخلي الذي يبحث عنه الشاعر ويكون الوطن السكن الداخلي الذي افتقده من جراء الاغتصاب الاستعماري، وبذلك يكون هذان العنصران المرأة والوطن من أهم ما يذكران الغريب ويشدانه إلى عالم الحرية»(محمد، ز. 1989، ص:62).

ولعل أهم ما ميز الشاعر وجعله يتألم كثيرا هو الأعياد التي عاشها خارج وطنه مبعدا عن أهله وخلانه -كما أسلفنا سابقا -، إذ كثيرا ما وقف موقف أبي الطيب المتنبي في مصر من جراء ما اكتوى به من ألم مما يظهر أنه يعيش بمليء نفسه وروحه مأساة وطنه(صالح، خ. ديوان، ص:33):

عيد بأي حال عدت يا عيد؟ بما مضى أم لأمر فيك تجديد
مالي أراك ثقيل الظل في وطني يشين وجهك في الأنظار تخديد
وقد عهدتك طلق الوجه مبتسما تعلو لقربك في الأجواء زغاريد
فجئتنا اليوم والنيران في لهب وللرصاص على الهامات تغريد
وللمنية في ساح النزال رحى تديرها فتية عرب صناديد

فالشاعر يجول بخاطره فيحوم على أرض الجزائر يتفقدها شبرا فشبرا وكيف آلت في العيد، فهو محتار على مصير أهله ومتشوق إليهم فاختلط عليه الأمران فنراه يرسل هذه الأغنيات بنغمة حزينة تنم عن سريرته(صالح، خ. ديوان، ص: 71):

يا عيد سرك بسمة أو دمع فيك التآم للحشا وتصدع
لم يحظ فيك ببهجة ومسرة شعب يعل من الدماء و يكرع

يا عيد ما أغنى الجزائر عن مجيئك وهي في حسك المظالم ترتع

فالشاعر يرسل صيحات صارخة تنم عن أمله في العودة لأرض الجزائر، ومدى شوقه إليها، إذ يرسل طيفه إليها ليتفقدها فيعود إليه كالصدى الكئيب من الجزائر ولا ييأس الشاعر، حيث يعلو نفسه أملا بزوال المصائب عن وطنه، حيث يقول(صالح، خ. ديوان، ص: 219):

شبح لاح لي يطوح في التيـ ـه إلى الأفق تشرئب يداه
يا إلهي متى أعود متى الفجـ ـر وليلى على الأسى ما مداه؟
رجع الأفق صوته ثم أحنى يسأل الأرض هل سمعت نداه

وهكذا يكون الشوق والحنين عند صالح الخريف سوى بوح عاطفي شجي مرتبط بالوطن ارتباطا وثيقا، وبرموزه من علم وأم وزوجة ويتعداه إلى الأعياد التي تبعث في نفسه ذكريات حالمة.

خاتمة:

لقد حاول الشاعر صالح الخريف أن يتفاعل مع مجريات الأحداث في وطنه تصويرا وبكاء على ما حل بشعبه يشاركه آلامه وجهاده مسخرا قلمه لنشر صوت الثورة في العالم العربي، فأبدع شعرا وطنيا تفوح منه رائحة الحب للجزائر، تلفها الأشواق لها وخاصة في الأعياد والمناسبات الكبرى حيث يحوم طيفه على أرض الجزائر ينساح فيها، يجول ويصول بفكره.

إن الوطنية عند الخريف وطنية ثائرة تؤمن بحب الجزائر وتدافع عنها وتمكن لها، وتتغنى بمآثرها وتنساح في زواياها مضحية بكل العواطف من أجلها، فالوطن عنده نسيم عليل يشتاق إليه وطيف عزيز عليه.

قائمة المراجع:

1 -ابن منظور، **لسان العرب**، مجلد: 13. بيروت: دار صادر.
2 -أحمد بن فارس، **مقاييس اللغة العربية**، ج: 6، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الفكر.
3 -أحمد رضا، 1960، **معجم متن اللغة**، المجلد 5. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

4 -إميل ناصف، 1992، **أروع ما قيل في الوطنيات**، بيروت: دار الجيل.

5 -الجرجاني السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد، 1987، **التعريفات**، تحقيق: عميرة عبد الرحمان، بيروت: عالم الكتب.

7 -سلمى خضراء الجيوشي، 1989، **أبعاد الزمان والمكان عند الشابي – دراسات عن الشابي**، الدار العربية للكتاب.

8 -صالح الخرفي، 1982، **الديوان " أطلس المعجزات "**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

9 -صالح خرفي، 1984، **الشعر الجزائري الحديث، الجزائر**: المؤسسة الوطنية للكتاب.

10 -عزيزة مريدن، 1966، **القومية والإنسانية في شعر المهجر الجنوبي**، مصر: الدر القومية للطباعة.

11 -مجمع اللغة العربية، 1990، **المعجم الوجيز**، جمهورية مصر العربية.

12 -محمد زغينة، 1989، **شعر السجون والمعتقلات في الجزائر(1954 - 1962)**، رسالة ماجسنير غير منشورة، جامعة باتنة.

13 -محمد ناصر، 1981، **الأصالة في شعر ثورة نوفمبر**، مجلة الأصالة، العدد: 89 -90، جانفي -فيفري.

14 -الوناس شعباني، 1980، **تطور الشعر الجزائري الحديث منذ 1945 حتى سنة**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

15 -وهيب طنوسي، 1979 / 1980، **الوطن في الشعر العربي**، سوريا: منشورات جامعة حلب.